المؤتمر الدولي للعلوم الاجتماعية

جامعة القدس- دراسات تركية- جامعة غازي

القدس- ٢٤ آذار (مارس) ٢٠١٨

القدس بين الديني والدنيوي

د. مهدي عبد الهادي/القدس

تتعرف في القدس على الجغرافيا (الأرض) المسكونة بالقداسة الدينية (العقيدة) والمرتبطة بالتاريخ (الأحداث) وحرص الإنسان عليها، في علاقة جدلية لا تنتهي عبر حقب الزمان، ويسعى المجتهدون من أهل الفكر والعلم لبيان الخطوط الفاصلة بين الحقيقة والأسطورة، الواقع والخيال، الحق والباطل، وبين الخير والشر..

تتعرف في القدس على "الرواية" الدينية والروايات "الدنيوية"، ورغبة الإنسان الارتباط بها والتواصل معها، بالعقل (المنطق) والقلب (العاطفة) وأحياناً بالنقل (النسخ) كما وصل عن السلف، وقد اجتهد الإنسان في فهم وتفسير الأصول والنصوص: تعديلاً وإضافة وحذفاً وعمل على توظيفها فيما بعد لأغراض وأهداف متعددة منها: "إدعاء حق ما" أوإلغاء أو تشويه "حقوق الآخر"!

تتعرف في القدس على المشهد المسيحي، ولادة الحدث المؤسس للعقيدة المسيحية كما بشر بها السيد المسيح عيسى بن مريم، وسجلتها الأناجيل الأربعة: مرقص ومتى ولوقا ويوحنا. على امتداد القرون الأولى من تاريخها كديانة روحية لم تؤسس لنفسها "دولة" إلا بعد أن تنصر الأمبراطور الروماني قسطنطين عام ٣٧٧ ميلادية!

تتعرف في القدس على الخطاب المسيحي حول قداسة المكان وحقب التاريخ "الزمان" وعلاقة الإنسان بالمكان المقدس، وقد سجل فريق من البطاركة والقساوسة في جلسات الحوار في القدس بتاريخ ٧ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠١٦ قراءته لهذه العلاقة فيما يلي:

١) القدس مدينة مقدسة للديانات الثلات: اليهودية والمسيحية والإسلام.

٢) إن التسلسل التاريخي للأحداث واحتلال الآخر للمكان المقدس" لا ينشأ حقاً ولا يغير واقعاً. وإن هناك فرقاً ومسافة بين ما هو ديني وما هو دنيوي، فالرواية التاريخية والرواة ومهما تعددوا وإلى من انتسبوا وأيضاً المصادر وتعددها "ليست جزءاً من العقيدة".

٣) الإنسان المسيحي لا يقبل إدعاء أو طلب المشاركة في مكان عقيدته المقدس أو مكان تعبده وصلاته. فالمكان المقدس في كل دين لا يشرك فيه دين آخر [كل كنيسة واتباعها لا تشارك كنيسة أخرى أو/و مذهب آخر في مكانها].

وجدير بالذكر هنا أنه بعد الاحتلال العسكري الإسرائيلي في عدوان حزيران ١٩٦٧، قام اليهود بفرض حضورهم العسكري، وطقوسهم الدينية، على الحرم الابراهيمي في الخليل وسيطروا على أضرحة "ابراهيم وسارة"، ليس لقداسة أو تقديس، بل لتملك وخصوصية لهم وبهم. ومنعوا "غير اليهود والذين " يصفونهم "الأغيار" والمقصود بذلك نحن معشر الفلسطينيين، بمعنى "الآخر" وقد منعنا ولا نزال من الوصول أو الصلاة بقرب هذه الأضرحة، وجرى تقسيم الحرم الابراهيمي في الخليل.

هذا وإن مضمون ومفهوم "المشاركة أو الاشتراك" لا توجد في الفكر أو الممارسة لدى اليهود إطلاقاً، والحالة عندهم تطبيق التملك في "خصوصية Exclusive" لهم وحدهم ولا اعتراف أو قبول بالآخر!

٤) إن الحرم الشريف/ المسجد الأقصى المبارك، هو مكان إسلامي مقدس منذ ألف وأربعمائة عام ولا ارتباط أو إدعاء مسيحي به.

وما قامت به الحملات الصليبية (الفرنج) في القدس وتحويل "مسجد قبة الصخرة" إلى "كنيسة" هي أحداث تاريخية وسياسية وليست دينية، ولا تنشأ حقاً أو تغير واقعاً!

٥) إن موقف الكنيسة يدعو إلى ضرورة التمسك بالوضع التاريخي والديني (الستاتسكو) القائم للأماكن المقدسة ولا يجوز تبديله (جدير بالذكر أنه قائم ومعمول به منذ العهد العثماني).

٦) جميع الاعتداءات على الحرم الشريف / المسجد الأقصى المبارك في سبيل أغراض وأهداف دين آخر، غير قانونية وغير جائزة.

٧) إن مسؤولية الدفاع وحماية الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية هي أمانة إنسانية مسيحية وإسلامية.

وتتعرف في القدس على المشهد الإسلامي والمكمل لكل الرسالات والجامع لكل الأنبياء الذين بشروا رسالة الإيمان بالله:

"**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**" (سورة البقرة ٢٨٥).

وقوله تعالى: "**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**"

(آل عمران: ٦٢). وإذا جاز لي من الاجتهاد في تفسير معنى كلمة "مسلمون" فهي بمعنى "موحدون"، التوحيد بالخالق الواحد الأحد.

تتعرف في القدس على قدسية "المكان": المسجد الأقصى المبارك كجزء من العقيدة الإسلامية كما جاء في القرآن الكريم:

"**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**" (سورة الإسراء: ١)، والقداسة هنا "للمكان" وليس للبناء والحجر والأبواب، والمبارك هو اجتماع الناس فيه وحوله للتعبد والصلاة وذكر الله.

تتعرف في القدس على "قبلة المسلمين الاولى" في صلاتهم وتعبدهم التي استمرت ستة عشر شهراً، وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ".. **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ. وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**" (سورة البقرة: ١٤٣).

تتعرف في القدس على الأحاديث النبوية بالدعوة إلى التواصل (شد الرحال) والإقامة (الرباط) في المدينة بقوله (ص): "**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا ومسجد بيت المقدس**". وجواب رسول الله (ص) إلى ميمونة بنت سعيد بقوله:

"**نعم المسكن بيت المقدس**" (رواه الإمام أحمد بن حنبل).

تتعرف في القدس على خطاب الأمان والعدل والمساواة في مضمونه الديني وممارسته الدنيوية كما سجله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين لأهل إيلياء، بيت المقدس ورحب به بطريرك الروم صفرونيوس ، وأيضاً الخطاب الروحي كما جاء في وصف الإمام الخليفة علي بن أبي طالب

للقدس بقوله "**وسط الأرضين، أرض بيت المقدس، وارفع الأرض كلها إلى السماء، بيت المقدس**".

وبعد..

قد يكون المدخل في وصف الحالة في القدس وفلسطين، وتراجع المشهد الدنيوي المقدسي، ما جاء في وصف ذو النون المصري أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم الصالح، في عهد جعفر المعتصم (العباسي) ٢٣٢هـ-٨٤٧م بقوله:

"**وجدت على صخرة بيت المقدس، كل عاص مستوحش، وكل مطيع مستأنس، وكل خائف هارب، وكل راجٍ طالب، وكل قانع غني، وكل محب ذليل**".

إن الصراع الذي تشهده القدس وفلسطين، منذ النكبة الفلسطينية قبل سبعين عاماً حتى اليوم، كان ولا يزال، في احتضان ودعم الغرب لأجندة الحركة الصهيونية، في إنشاء **واقع جديد على أرضنا، والاعتداء على مقدساتنا، وإلغاء حقوقنا، وتصفية قضيتنا**.

لقد هرولت الحكومات المتعاقبة في إسرائيل على فرض "سيادتها" الأحادية على القدس. وحاصرتها بأحزمة استيطانية كولونالية خاصة وخصوصية لليهود، وفصلت وقطعت وعزلت الأحياء الفلسطينية عن بعضها البعض وكذلك عن محيطها الفلسطيني وتطرح مخططات لضم كتل استيطانية رئيسية إلى المدينة كبلديات فرعية، وهي مجمع مستعمرات غوش عتصيون ومعاليه أدوميم/ (E/1) وجفعات زئيف. وكلها أقيمت على أراضي الضفة الغربية المحتلة.

لقد اعتقلت سلطات الاحتلال الإسرائيلية حتى آب (أغسطس) ٢٠١٧ حوالي (٦،٢٧٩) ستة آلاف مائتي وتسعة وسبعين فلسطينياً، ومنهم حوالي (٤٨٠) أربعمائة وثمانون من القدس، وحوالي (٣٠٠) ثلاثمائة طفل فلسطيني.

لقد أبقت الحكومات الإسرائيلية على ما يعادل (٩،١٨) كم^{٢} أي فقط (١٣%) من أراضي القدس والتي تم إلحاقها وضمها إلى حدود البلدية الإسرائيلية، وجعلتها مخصصة لأغراض البناء للفلسطينيين ولكن ضمن المخططات التنظيمية الإسرائيلية!

وقامت السلطات الإسرائيلية بمصادرة (٢٤،٥) كم^{٢} أي ما يعادل (٣٥%) من أراضي القدس في حدودها البلدية الحالية، وذلك لغايات بناء وامتداد المستعمرات الإسرائيلية، كما تم تخصيص (٢٥،٤٨) كم^{٢} أي ما يعادل (٢٢%) من أراضي القدس كمساحات خضراء ومرافق عامة، بينما تم تصنيف (٢١،٣٥) كم^{٢} أي ما يعادل (٢٠%) من الأراضي، كأراضي غير تابعة للتنظيم والتخطيط!!

وقد عملت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة على نقل مواطنيها للمدينة المحتلة، فهناك ما يزيد عن (٢٠٤,٠٠٠) مستوطن إسرائيلي يقيمون في القدس الشرقية، منهم:

- أكثر من (١٠٠٠) ألف مستوطن وطلبة مدارس دينية يعيشون في البلدة القديمة خارج الحي اليهودي.
- أكثر من (٢٠٠٠) ألفي مستوطن يعيشون في منازل أو جيوب تقع في وسط أحياء فلسطينية.

كما أقامت الجدار العازل (جدار الفصل العنصري) حول القدس، ويبلغ طوله (١٣٩) كم، ويمر منه (٣%) فقط ضمن مناطق الخط الأخضر (مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية). يعيش حوالي (١٤٠,٠٠٠) فلسطيني في الأحياء الواقعة خارج الجدار ولا يحصلون على أية خدمات بلدية (كفر عقب ومنطقة مخيم شعفاط).

كما هدمت القوات الإسرائيلية منذ بداية عام ٢٠١٦ وشهر شباط (فبراير) ٢٠١٨ ما مجموعه (١٦٢) منزلاً فلسطينياً، إضافة إلى (١٠٤) منشآت غير سكنية (مثل المخازن، والجدران ،والمرافق الزراعية) (بتسيلم ، ٢٠١٨).

سحبت السلطات الإسرائيلية بين عام ١٩٦٧-٢٠١٦ ما لا يقل عن (١٤،٥٩٥) بطاقة هوية إقامة من سكان مدينة القدس، ناهيك عن أطفالهم ، مما سيزيد عدد الذين جُرّدوا من حقوقهم في القدس – إضافة إلى الفوائد الصحية والاجتماعية خمسة إلى ستة أضعاف.

فرضت السلطات الإسرائيلية المنهاج الدراسي الإسرائيلي والرقابة على جهاز التعليم الفلسطيني كأداة "لأسرلة" هوية العلم والثقافة في المجتمع الفلسطيني.

هذا ويضم جهاز التعليم الفلسطيني في القدس الشرقية (٨٨) ألف طالب وطالبة بينهم (٤٢) ألف في (٥٧) مدرسة تابعة للبلدية، و(٢٦) ألف طالب وطالبة في (٥٣) مدرسة غير رسمية و(٢٠) ألف طالب في مدارس أخرى موزعة بين المدارس الخاصة (٣٥) مدرسة، ومدارس الأوقاف الإسلامية: (٣٢) مدرسة ومدارس وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا) (٨) مدارس، في مقابل (٤،٢٠٠) طالب وطالبة غير مسجلين في أية مؤسسة تعليمية.

وهناك نقص حاد في عدد الغرف الدراسية والمباني للتعليم يقدر بحوالي (٢٠٠٠) ألفي غرفة تدريسية، وجدير بالذكر أن نصف الغرف الدراسية الحالية، غير مستوفية للمعايير المطلوبة لخدمة أغراض التدريس.

إن نسبة الفقر بين الفلسطينيين في القدس مرتفعة كثيراً مقارنة ببقية السكان، وإن متوسط الفقر بين الفلسطينيين في القدس وصل إلى ٤٦،٥%.

هذا وبلغ تعداد الفلسطينيين في القدس في نهاية العام ٢٠١٧، حسب المصادر الإسرائيلية (٣٢٤) ألف نسمة أي حوالي 38٪ من السكان الذين يبلغون (٨٦٦) ألف نسمة، ولا ترصد الحكومة الإسرائيلية سوى ١٢-١٣% من ميزانية البلدية لخدمات أهل القدس المحتلة.

هذا وتشهد القدس حالة سقوط غير مسبوقة في تاريخها، وذلك بفرض أجندة الأسرلة والتهويد بدءاً في الحفريات والأنفاق في أسفل المدينة القديمة بكاملها، وانتشار ظاهرة بناء الكنس تحت أساسات المسجد الأقصى المبارك وفي المدينة، وإقامة المدارس الدينية والتنظيمات المتطرفة تحت الستار الديني بدعوى تعلم التلمود، واستمرار الاقتحامات اليومية لجماعات يهويدية رسمية وحزبية ودينية لساحات المسجد الأقصى المبارك.

ومن معارك الاشتباك اليومي في المشهد المقدسي، تغيير أسماء الشوارع والأحياء العربية وهدم مقبرة "مأمن الله" وإحراق وتشويه كنائس في المدينة، الأمر الذي يذكرنا باستمرار في محاولة المتطرف الاسترالي (دينيس مايكل روهان) اضرام النار في ثلاث مواقع في المسجد الأقصى المبارك في ٢١ آب (أغسطس) ١٩٦٩.

ولا تزال جماعات متطرفة ومنها، "أمناء جبل الهيكل" تقتحم ساحات المسجد الأقصى، في محاولة "لوضع أساس لبناء الهيكل المزعوم"، وقد تصدى لهم أهل القدس في ٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٠، وارتقى إلى السماء منهم (٢٣) شهيداً فلسطينياً وجرح حوالي (١٥٠). وعرفت الواقعة بمسمى "مذبحة الأقصى"!

كما تصدى أهل القدس لمحاولة بنجامين نتنياهو، رئيس الحكومة الإسرائيلية افتتاح "نفق حشمونئيم" تحت ساحات المسجد الأقصى المبارك في ٢٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٦ وارتقى إلى السماء منهم عندها (٧٠) سبعون شهيداً فلسطينياً وأصيب حوالي (٥٠٠) من أهل القدس.

وجاءت انتفاضة الأقصى في يوم الجمعة الموافق ٢٨ أيلول (سبتمبر) عام ٢٠٠٠ إثر اقتحام الوزير الإسرائيلي شارون ساحات المسجد الأقصى في محاولة استفزازية وإدعاء "السيطرة على "المسجد الأقصى". واستشهد في هذه الواقعة (٧) فلسطينيين وجرح حوالي (٢٥٠) آخرين.

وفي المشهد المقدسي، بعد خمسة عقود من الاحتلال الكولونيالي، وتراكم الاحتقان والغضب في المجتمع المقدسي، وكان حراك الشباب المقدسي في مطلع شهر تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠١٥ بشكل عفوي وتلقائي وفردي في الميدان، في مواجهة قوات عساكر الاحتلال، وطغيان وعدوان قطعان المستوطنين.

وكانت من آخر محطات الاشتباك التصدي للاعتداءات على الحرم الشريف/المسجد الأقصى المبارك، عندما أغلقت السلطات الإسرائيلية أبواب الحرم الشريف/ المسجد الأقصى المبارك واقامت البوابات الإلكترونية الحديدية وكاميرات المراقبة.

ومنعت السلطات الإسرائيلية أهل القدس من الدخول والتعبد في المسجد الأقصى المبارك وذلك على اثر اشتباك مسلح عند أبواب الحرم الشريف، ومقتل ثلاثة فلسطينيين واثنين من عساكر الاحتلال، في شهر تموز (يوليو) ٢٠١٧.

وجاءت مبادرة عمائم المسجد الأقصى المبارك، تأخذ موقعها ودورها، قامات وطنية، ومرجعيات دينية، في قيادة حراك أهل القدس، رجالاً ونساءاً، كباراً وصغاراً، وجعل شوارع وأزقة القدس "سجادة صلاة" إلى الحرم الشريف/ المسجد الأقصى المبارك طوال أسبوعين من شهر تموز (يوليو) ٢٠١٧ وإعادة "السيادة العربية الإسلامية".

هذه خصوصية أهل القدس، وقد روي عن رسول الله (ص) في وصف الرجال والنساء الذين يقيمون في القدس بأنهم "مرابطون" بقوله:

"لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأ واء، حتى يأتيهم أمر الله. وهم كذلك"، قيل: يا رسول الله وأين هم؟ قال: "ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس".

وحتى لا تنفرد "نجمة داود" في التحكم بمشهدنا الفلسطيني ومقدساتنا أو تفرض علينا "صفعة القرن" وتصفية ما تبقى من القضية، وحتى لا نسقط في سيئات أعمالنا، ويستمر نزيف خلافاتنا، أو يلطخ قميصنا بدم كاذب، أو نحرَف "سورة يوسف" التي قرأناها كأحسن القصص.

تعالوا إلى القدس، لتجمعنا، تعالوا إلى رسالة السماء التي حملها الأنبياء والرسل، وهي أمر إلهي لا دخل للإنسان في صنعها أو الادعاء بتملكها، لانها عقيدة ثابتة، تقبلها العقل (المنطق) واتصلت بالوجدان وارتبطت بهذه الأرض المباركة!